ليبَارك الربُ أمريكا... والعجزَ العربي

فيصل درّاج

حين قام «النظام الدولي الجديد» بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وحربِ الخليج الثانية، سارع رهطٌ من المثقفين العرب إلى التبرؤ من «إيديولوجيا الكهوف» التي تحيل على القومية والاشتراكية والشيوعية والوحدة العربية والعداء للصهيونية، كما لو كانوا يمسحون عن جباههم وصمةً سوداء، كي يستقبلوا بأرواح نظيفة زمناً سخيّاً بالضوء والحوار. وإلى جانب الرهط الباحث عن كفّارة أخيرة وقف رهطٌ «أكثر جرأةً» يهجو ما مضى ويحتفل بالزمن السعيد القادم، حيث تطرد الجغرافيا المتقلصةُ الحدودِ التاريخَ، وتكنس الديموقراطيةُ المتأمركةُ آثارَ الشموليات البائدة؛ وإذا بالعالم ـ وقد طَرَدَ الحروبَ والجوعَ والأوبئة ـ يتحول إلى قريةٍ وادعة تَنْظم الشِّعْرَ ولا تحتاج إلى الرواية.

ومع أنّ «النظام الدولي الجديد»، بالمعنى الصحيح للكلمة، هو النظام الذي كان، أيْ ذلك الذي تلا الحربَ العالمية الثانية حتى نهاية الثمانينات، فإنّ بعضاً من الساسة والمثقفين العرب خَلَطَ بين ما هو أمريكي وما هو جديد، فبدا «النظامُ العالميُّ الجديد» جديداً. وواقع الأمر أنّ «النظام الأمريكي الجديد»، بلغة سمير أمين، تكثيفُ لتاريخٍ أمريكي قوامُهُ الحروبُ وسفكُ الدماء واغتصابُ حقوق البشر وغطرسةُ عنصريةٌ مسلّحةٌ بأفتك الأسلحة؛ وقد أضيف إليه انتقامٌ متأخرٌ من جميع الشعوب التي هجستْ بالتحرر حين كان الاتحادُ السوفياتي قادراً على قمع العنف الأمريكي، ولو بقدر. والشعب العربي من الشعوب التي عليها أن تدفع ثمن حلم التحرر المجزوء، سواء أكان الحلم صادقاً، كما هو الحال في زمن عبد الناصر، أم كان حلماً مهزوزاً، قوامُهُ الكثيرُ من الشعارات العريضة والقليلُ من السياسات الصائبة.

ومن دون تأمُّلٍ طويلٍ للموقع الذي ينتمي إليه الحلمُ العراقي، فقد كان على العراق، الذي مكّنته جملةٌ من المصادفات من امتلاك جيشٍ قويٍّ، أن يكون ضحيةً نموذجيةً لقمعٍ أمريكيٍّ مطلقِ السراح. فقد امتلك العراقُ جيشاً قوياً لحظةَ انهيار الاتحاد السوفياتي، واتّكأ على جيشه وهو يقترب مهزوزاً من منابع النفط الخليجي، وبدا قوةً إقليميةً في زمن صناعة السلام على الطريقة الأمريكية... إلى أن سقطَتْ عليه «لعنةٌ أبدية» حين أُطْلق بعضَ الصواريخ على مدينة «الشمس» المؤَلّهة، أيْ إسرائيل. وإذا كان على العراق أن يستقبل من القنابل والصواريخ ما يكفي لردّه إلى «زمن بدائي»، كما قال مسؤولٌ أمريكي، لا لشيء إلا لأنّ نظامه نظامٌ عربي تجرّأ على امتلاك أسلحة حديثة، فإنّ جملةً من الوقائع المزوّرة جاءت لتبرِّر العدوانَ الأمريكيَّ وتعيد إنتاجه وفقاً لما تشتهي رغباتُ البيت الأبيض. فهناك السيطرة الأمريكية على العالم، والعجزُ العربي، وقراراتُ «الشرعية الدولية»، والحساباتُ السياسية اليومية للرئيس الأمريكي... وهناك السيد ريتشارد بتلر، كبيرُ المفتشين عن «أسلحة الدمار الشامل في العراق»، أي كبيرُ شاهدي الزُّور ضد حق شعب العراق في الحياة.

*

ومهما يكن تضافُرُ العناصر الموضوعية والذاتية التي تسوِّغ تقطيعَ أوصال العراق صباحاً ومساءً، فإنّ ريتشارد بتلر يظل تكثيفاً شديداً لروح الانتقام السوداء القائمة في هذا الزمن والتي لازمتْ جميعَ أزمنة الانتقام في آن واحد. كما لو كان «كبيرُ المفتشين» لا وجود له اسماً وهيئةً وقواماً، بقدر ما هو موجود بوصفه مرآةً تعكس صفاء كلِّ طاقات الحقدِ والانتقامِ والتدمير، منذ أن وصل أولُ فارسٍ صليبيٍّ إلى أرض العرب، وحتى بواكير رمضان الأخير، الذي قصفتِ الصواريخُ الأمريكيةُ هلالَهُ قبل لحظة

الاستهلال.

في مشية متباطئة ولا ينقصها الزهو، وعينين باردتين فارقهما البريقُ، ووجهٍ كدرٍ لا يعرف الاختلاج، يبدو ريتشارد بتلر وجهاً مألوفاً لمن أدمن قراءةَ التاريخ الاستعماري القريب والبعيد. ففيه ما يحيل على اللورد كرومر، البريطاني الذي يسلخ جلد الفلاّح المصري لأنه يطالب بحفنة من هواء؛ وفيه ما يَردُّ إلى الدكتور كيسنجر، الذي يتحدث عن السلام بنبرةٍ صهيونيةٍ توارتية؛ وفيه ما يشير إلى «عالِم الانتربولوجيا» الأمريكي، الذي يدخلَ تشيلي في زمن «أليندي» كي يجمع معلوماتٍ للمخابرات المركزية متحصّناً بلقبٍ علميٍ وهالةٍ أكاديمية.

ولعلّ هذا الأُسترالي الأشر، الذي يحلم بعراقٍ لا وجود له، قد عرفته الجزائرُ في أزمنةِ استعمارها، وعرفته فلسطين في أكثر من مندوب سامٍ، وعرفه لبنان زمنَ الحرب الأهلية، ولا تزال تعرفه السفاراتُ الأمريكيةُ التي تفتح أبوابها للمثقفين العرب الذين يسلّعون الذاكرة.

ولأنّ الأسترالي الأشر لا يمثّل «إرادةً دوليةً» تفتّش عن أسلحة العراق، بل يعيد تمثيلَ دور «العالِمِ الانتربولوجيّ» المتآمر على حق الشعوب في الحياة، فإنه يُنجز الدورَ المنوط به من دون نقصان. وهذا ما يقوده إلى إهانة العراق شعباً وحكومةً وتاريخاً: كأنْ يفتّش كُتُبَ الطالب العراقي الذي يَدْرس الطب، حيث الطب (كما يرى المفتش الرجيم) سلاحٌ فتّاكٌ يجب تدميرهُ، أو كأنْ يوقف أستاذاً جامعياً كي يفتّش في جيوبه باحثاً عن «قنبلة نووية». وإضافةً إلى الإهانة اليومية يعطف «المفتشُ الكبير» على تقريره ما شاء من التزوير والتضليل، مؤكّداً أنّ ضربَ العراق للمرة الألف بداهةٌ إنسانيةٌ وضرورةٌ أخلاقية يحتاجها أطفالُ القرن الحادي والعشرين. وبتلر، في كل هذا، يتماثل مع سيده الأمريكي ويأخذ بنبرته المتغطرسة. ولهذا تكون إجابتُهُ صارمة، حين يسأله صحفيٌّ عن إمكانية استقالته: «ولماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟». والإجابة جاهزة مادامت السيدة أولبريت، وزيرة الخارجية الأميركية، ترى فيه «مسؤولاً نموذجياً، أنجز عملَه بكفاءةٍ عاليةٍ في شروطٍ بالغة الصعوبة». والموظف النموذجي، في التصوّر الأمريكي، هو الذي يرى في تحطيم ما تبقّى من إرادة الشعب العربي ضرورةً مطلقة، سواء ارتبط الأمرُ بالعراق، أو مسَّ السودانَ وليبيا، وصولاً إلى اليمن التي «زلزلت الأرض زلزالها» إثر مقتل أوروبيين لا يتجاوز عددُهم أصابعَ اليد الواحدة.

لا يبحث ريتشارد بتلر، المفتّشُ عن قنبلةٍ نوويةٍ في كتب مدرسيّة، عن حقيقةٍ أو شبه حقيقة، بل عن مسرح ملائمٍ يعرض فوقه حقداً صليبياً يعوِّد إلى مئات السنين. وما عمله كله، من حيث هو قناعٌ راهنٌ لوجهٍ لا زمن له، إلا تعبيرٌ عن نزعةٍ صليبيةٍ متجددة، أيقظها من غفوتها الناقصةِ انحطاطٌ كونيٌّ أو شيءٌ قريبٌ من الانحطاط. ولهذا يكون بتلر حاضراً في روح الجنديّ الأمريكي «ريكنبرغ» الذي كَتَبَ على صاروخٍ وزنُه ألفُ كيلوغرام: «هديةً إلى العراق بمناسبة شهر رمضان». ويكون عالِمُ الانتربولوجيا الأسترالي حاضراً أيضاً في روح قسيسِ كنيسةِ كانتربيري الإنجليزي، الذي رأى في «عملية ثعلب الصحراء» عملاً فضيلاً ينصر التعاليمَ الدينية وتنصره... بقدر ما يكون الأستراليُّ الكاذبُ موجوداً في روح الرئيس كلينتون وهو يوجِّه كلمةً إلى المسلمين، «مفتياً» بضرب العراق وفقاً لـ «الشريعة الإسلامية» وشرائعِ الأديانِ السماوية كلها في آن واحد.

ريتشارد بتلر، بروحه السوداء ومشيته المتباطئة، موقعٌ اجتمعتْ فيه أحقادٌ مختلفةٌ تنتسب إلى أزمنة متعددة، ترى في العربيّ شراً خالصاً أو وجوداً نافلاً ينبغي التخلصُ منه. ولهذا لا يكون غريباً أن يَصْحب معه في «رحلته العلمية» إلى العراق عملاءَ للموساد، وأن يرسل كلَّ نتائج بحثِهِ العلميّ الرفيع إلى الحكومة الإسرائيلية. ولن يكون غريباً أيضاً أن يرى نتنياهو في «كبير المفتشين» إنساناً شجاعاً ومخلصاً، فإنْ وصل الأمر إلى موردخاي (وزير الدفاع الإسرائيلي) استحق الأستراليُّ المتعاملُ مع الموساد لقبَ «البطل» أو لقب «المفتش النبيل» المقاتل ضد «نظامٍ خطر» لا يمتثل إلى «الشرعية الدولية».

والشرعية الدولية، التي يدافع عنها عميلٌ للموساد أشرٌ، هي تلك التي تُقرّها الولاياتُ المتحدة، التي تتعامل مع مجلس الأمن كـ «حذاء»، وفق تعبير مسؤول صيني كبير. وهي تلك التي تعرِّفها إدارةٌ أمريكيةٌ يعمل في صفوفها العليا سبعة وخمسون يهودياً، تعود إليهم وزارةُ الخارجية ووزارةُ الدفاع وجملةُ العقول القائمة على تفكير عملية السلام وتنفيذها في ما يسمَّى بـ «الشرق الأوسط». وهذه الإدارة الأمريكية، الأكثر صهينةً في تاريخ الولايات المتحدة، هي التي تمدّ نتنياهو بعزم شديد، فيدير «مفاوضات السلام» على طريقته، وينفِّذ منها ما يشاء ويرفض ما يشاء، إلى أن يُلقي بقفّازه الحديدي في وجه كلينتون، مؤكّداً له أنْ لا قوةَ في الأرض تمنع الصهيونيَّ من التصرف بـ «حقوقه المشروعة».

*

يقف بتلر في مكانه، لا يملك إلا الاسمَ وطول القامة. ذلك أنّ كيانه موزَّعٌ

على غير مكان، وممتدّ إلى أزمنة مختلفة. فللحروب الصليبية من وجوده نصيب، وللمشروع الصهيوني من كيانه حصّة، ولقتلة ساندينو في روحه مكان، وللاستعمار الإنجليزي الراحل في عقله أكثرُ من وشمٍ وأثر. ولهذا فإنّ بتلر لن يكون إلا وجهاً آخر لتوني بلير، زعيم حزب العمال البريطاني، الذي وصلَ إلى موقعه بعد تبدُّدِ الحركة النقابية البريطانية وتحوُّلِ الأكثريةِ العمّاليةِ إلى ثاتشرية مقلوبة. ولم يكن المعلّقُ السياسيُّ لصحيفة **الغارديان** البريطانية مخطئاً حين قال، عشيةَ نجاح بلير: «لا يشكّل نجاحُ توني بلير هزيمةً للثاتشرية بقدْرِ ما يمثّل انتصاراً للثاتشرية داخل حزبِ العمال». ولم يكن أمام الثاتشريّ الجديد، الذي يحيل على «السيدة الحديدية» المعجبة برونلد ريغن، إلا أن يؤكّد تحليل الصحفي البريطاني. ففي ظروفِ انهيار الحركات العمالية النموذجيّ يتحولَ قادتُها المفترضون إلى النسخة الأكثر سوءاً وبذاءةً للقادة المحافظين، الذين اختلفوا معهم ذاتَ مرة. وبلير يؤكّد القاعدةَ ولا يكسرها، فيكون ثاتشرياً عنيداً، بل يزاود على كل ثاتشريٍ قديم، مستلهماً ـ ولكن على قدمينِ من قش ـ كلَّ الموروث الاستعماري القديم. ولأنّ القدمين اللتين يقف عليهما سريعتا الاشتعال، كان عليه أن يستجير بقدمين كبيرتين ثابتتين، هما قدما الولايات المتحدة الأمريكية. وفي كلّ هذا يكون بلير مرآة لبتلر، بقدر ما يكون المستشارُ الأستراليُّ صورةً لـ «قائدٍ عمّالي» حرَّره الزمنُ من ثقافة الحركة العمّاليةِ الإنجليزية، وأبقى له أطيافَ الروح الاستعمارية التي ترمِّم شيخوختَها المتداعيةَ بشباب الاستعمار الأمريكي. ولهذا لن يكون أمام توني بلير إلا الكذبُ، أو ذلك التزويرُ الذي يمجّه كلُّ حسٍّ إنسانيٍ سليم، حين يقول: «إنّ صدام حسينَ خَطَرٌ على البشرية كلها»؛ وقد تأخذه البلاغةُ الماسخة فيقول: «إنّ النظام العراقي تهديدٌ للسلام في نهاية القرن العشرين مثلما هو تهديد للسلام في مطلع القرن القادم».

وحقيقة الأمر أنّ بتلر يخترع الصورةَ العدوانيةَ الضروريةَ للعراق، مستعجلاً ضربةً تقوّض ما هو ضروريٌّ لنهوض العراق، مثلما يخترع بلير صورةً معينةً للحرب والسلام تجعل من كل حربٍ ضد العراق ضرورةً للسلام المفترض. والأمر الجوهري غائب، أو مغيّب، لا يردّ إلى حرب أو سلامٍ أو إلى ما بينهما، بل إلى إرادة القوةِ، التي تخلق الظواهرَ عن طريق خلق الأسماء والمسميات. ولهذا يتم خلقُ عراقٍ واجبٍ تدميرُهُ في اللحظة التي تعطي فيها لغةُ البيتِ الأبيضِ العراقَ صفةَ «عدو السلام»، أو (بشكلٍ أكثر بهتاناً) صفةَ «عدو الشرعية الدولية». ولأنّ لغة القوي تقول ما تشاء من دون برهان، يستطيع الرئيس كلينتون، وفي اليوم الثاني لعملية «ثعلب الصحراء»، وفي اجتماع نسائي، أن يقول: «إنّ ما نقوم به ضرورةٌ لسعادة أطفالنا في القرن الحادي والعشرين». لا شيء يمنع الرئيس الأمريكي أن يقول ما يشاء، لأنه لا يوجد أحدٌ يستطيع منعه من فعلِ ما يشاء وما يريد.

*

وقد يبدو ريتشارد بتلر قناعاً زائفاً لوجهٍ حقيقيٍ موزَّع على تاريخ أوروبيٍ متعدد الأزمنة؛ فهو الصليبيُ المتجدد المتكئ على تاريخٍ استعماري أوروبي أثيل، والذي استعاد شبابه في زمن «النظام الأمريكي الجديد». يبدو الكلام كما لو كان قد اتخذ من «السيطرة الأوروبية» مركزاً له، واكتفى بها بعيداً عن الشرق وأرض الأنبياء. غير أنّ الأمر ليس كذلك تماماً، لأنّ السيد بتلر يستعير بعض أوصاله، حتى لو كانت واهنةً، من أرضٍ غيرِ أوروبية. وهنا يأتي دورُ «النظامِ العربي الجديد»، الذي يشجب العدوانَ الأمريكيَّ على العراق جهاراً ويباركه سراً، كما قالت بوضوحٍ كبيرٍ السيدة أولبرايت. لم يكن السيدُ بتلر، بنبرته الباردة وتقاريره الكاذبة، قادراً على فعل ما يفعله باطمئنان كبير، لولا ضعفُ النظام العربي وتهالكُهُ وتطامنُهُ، في مستوى منه، ولولا تآمرُ هذا النظام العربي ومباركتُهُ للعدوان الأمريكي على العراق، في مستوى آخر. وعن المسافة الفاصلة بين العجز والتبريك صَدَرَ خطابٌ عربيٌّ رسميٌّ مسيطرٌ مثيرٌ للأسى، تلتهم حروفُهُ بعضها بعضاً وتتحارب كلماتُه وتحترب جمله وتتناكر معانيه، كأن يُدعَم العدوانُ ضد النظام ويتم استنكار ضرب الشعب، أو كأن يُبارَكَ تدميرُ شعب العراق إذا أفضى ذلك إلى استسلام النظام، أو كأن يُسْتَنكر العدوانُ إذا لم يقم شعبُ العراق بضرب نظامه الذي تضربه الصواريخُ الأمريكية، أو كأن تُسْتَهْجَن الحربُ إذا سقطتِ القنابلُ في فترةٍ تمنع العراقَ من تأدية واجب الصلاة في المسجد، أو كأن تتراكم اللعناتُ ضد الصواريخ وتتم تهنئةُ قاذفيها على الأرض العراقية، أو كأن تُلْعَن الحربُ إذا جرحتِ الهواءَ ولم تجرح الجنود، أو كأن يندِّد بـ «ثعلب الصحراء» إذا ألحق بـ «الحرس الجمهوري» جراحاً ليست قاتلة... تتداخل الكلمات العاجزة في خطابةٍ ماسخةٍ من دون أن ترى في قصف العراق جريمةً بحق الشعب

النظام العربي الجديد يشجب العدوان الأميركي جهاراً ويباركه سراً

العربي كله، ومن دون أن يهجس مسؤولٌ بمبادرةٍ جادةٍ توقف المجزرةَ المستمرةَ منذ سنوات، والتي هي، في جوهرها الحقيقي، مجزرةُ الشعب العربي كله.

تنقض التصريحاتُ العربيةُ الرسمية بعضها بعضاً وتعيد رسم صورة بتلر من جديد، فيكون قاضياً مزوّراً، يقبل البيتُ الأبيضُ بشهادته، وترضى عن «فتاويه» الأنظمةُ العربية؛ فإن اختلفتْ فيما بينها، ولم ترض أن «يوزّعُ دَمُ القاتل على القبائل»، أرسلتْ عجزَها ـ الصامتَ حيناً والناطقَ في معظم الأحيان ـ كي يذهب مهنّئاً، يشد على يد المستشار الأسترالي، ويحمل اليه أرفعَ آيات الرضا والطاعة. والسيد بتلر مرتاح، يطبّق معايير «الشرعية الدولية» التي يغبطه على تطبيقها معظم الأنظمة العربية، والتي لا تلبث أن تُعْرب عن غبطتها لإجراءات «الحرب العادلة»، حين تقول في الخفاء ما لم تقله في العلن، مثلما أعلنت السيدة أولبرايت قائلةً: «إنّ الدول العربية موافقةٌ على ما قمنا به»، فإنْ عارَضَها صحفيٌّ قالت: «إنّ الأنظمة العربية لا تقول في العلن ما تقوله لنا في الخفاء». والسيدة أولبرايت، التي ترى في بتلر مسؤولاً عالي الكفاءة، لا تقول إلا ما سمعتْه من مسؤولين عرب، أو ما هجستْ به بصدقٍ كبير، من دون أن تسمع شيئاً، لأنّ العجز الرسمي العربي أكثرُ فصاحةً من أيّ بلاغةٍ تحاول ستره وإخفاءَ قسطٍ من ملامحه.

وكما تكون الأنظمة، التي التهمها العجزُ بعد أن التهمتْ شعوبَها، يكون إعلامُها الرسميُّ. فكل الكلام يذهب إلى طفل العراق، وكلُّ البلاغة تَذود عن حق شعب العراق في الحياة. ورغم البلاغة الكاسحة فإنّ الجريمة تسجَّل ضد مجهول. فإذا كان المطلوبُ الدفاعَ

أميركا ترفع رأس العراق المقطوع أمام كل نظام لا يهجس إلاّ بالحفاظ على رأسه

عن الطفل العراقي فإنّ من الواجب تحديدَ اسم المجرم الذي يقتله، واتخاذَ إجراءاتٍ مؤازرةٍ تدعم فعلياً الطفلَ العراقيَّ وتستنكر فعلياً العدوانَ الأمريكيَّ على العراق. وإذا كان من المفترض نصرةُ الشعب العراقي فإنّ البداهة تقول بضرورة إيقاف العدوان الأمريكي عليه، وإلا فما معنى هذا الكلام؟ إنّه لشيءٌ يُذَكِّر بالجلّاد الذي غضب على ضحيته الراحلة لأنها لم تحتمل العذابَ طويلاً بسبب بنيتها الضعيفة، أو يُذكّر بسجينٍ بريءٍ وساذجٍ أدمن كرةَ بوّابة السجن المقفلة على الدوام من دون أن يقول شيئاً عن السجّان ولا عن القاضي المرتشي الذي برّر سجنه. ولذلك فإنّ جميعَ ذنوب الأرض توضع [بحسب الإعلام الرسمي العربي] على كتفي النظام العراقي وحده: فتحريرُ الشعب العراقي يعني لَعْنَ نظامه، والتعاطفُ مع الطفل العراقي يستوجب التنديد بحكومته، والمطالبةُ بإيقاف العدوان على الأرض العراقية يستلزم سقوطَ وإعدامَ القائمين على شؤون بعض العراق... وإنها لمحاكمةٌ بائسة لا تختلف في شيء عن تقارير السيد بتلر، لأنها في نصرتها الكاذبةِ للشعبِ العراقي لا تقوم إلا بتبرير العدوان عليه وتسويغِ ومباركةِ القراراتِ والأفعال الأمريكيةِ الموجَّهة ضده. ومن الصور التي لا تُنسى صورةُ مذيع تلفزيوني، في دولةٍ متاخمةٍ للعراق، يَعْطِف بغبطةٍ سقوطَ الصواريخ المتواتر على بغداد على رفضها المتواتر لتطبيق «قرارات الشرعية الدولية». يعطي المذيعُ قولَه مرتاحاً، لا يخفي الفرحة ولا يحجب الرضا؛ يمسّد شاربه الدقيق ويمسّ بحركةٍ متواترةٍ أطرافَ كوفيته، موحياً بسقوط «النظام المتعنّت» تحت استمرار «الضربات المستمرة الناجحة». إنّه بتلرُ صغيرٌ، وما هو ببتلر؛ بتلرٌ عربيٌّ مضحكٌ بشاربه الدقيق وكوفيته البيضاء، لأنّ بتلر الحقيقي يُرضي رغبةً عاقلةً ويستقيل من عمله حين يشاء، أما الـ «بتلر العربي» فيُرضي رغبةَ أسياده قبل أن يرضي كلَّ أشكال العبث وانحطام المعنى وتدمير القيم وانتحار الذات.

*

والسؤال الآن: لماذا هذا الإصرارُ الأمريكي الدؤوب على تدمير العراق؟ والإجابة الأمريكية المباشرة هي: تخليصُ الشعب العراقي من حاكمه المستبدّ، ومنعُ النظام العراقي من تهديد جيرانه والعالم أجمع. ولكنّ هذه الإجابة كاذبة لغير سبب: فلقد كانت علاقةُ الرئيس العراقي مع أمريكا جيدة تماماً لمدة طويلة من السنوات، بل كانت علاقةً أكثر من جيدة، منذ استلامه السلطةَ حتى نهاية حرب الخليج الأولى. وبسبب هذه العلاقة بدأ النظامُ حربَه مع إيران، وبسببها أيضاً هَجَس ـ في ليلةِ صيفٍ مجنونةٍ ـ بضم الكويت إليه. ومهما تكن جودةُ العلاقة الأمريكية العراقية في فترةٍ، وتدهورُها في فترة لاحقة، فإنّ صيغة «تخليص العراق من صدام» فاسدةٌ من أصلها. ذلك لأنّ القول بهذا يعني، لاحقاً، تخليصَ ليبيا من القذافي، والسودانَ من الترابي، ومصرَ من مبارك مثلاً... أي يعني تحويلَ الحياة الداخلية للشعب العربي إلى شأنٍ أمريكيٍّ خالص، بمباركةٍ وقبولٍ من الأنظمة والشعوب العربية معاً. ولهذا ينبغي البحثُ عن أسباب الموقف الأمريكي من العراق في مكانٍ آخر يقول: تسعى

الولايات المتحدة، من خلال تدميرها المستمر للعراق، إلى تأكيد الإرادة الأمريكية إرادةً وحيدةً ومتفرّدةً في المنطقة العربية، تحدِّد مستقبلَ العراق من ناحية، وتحدد مستقبلَ العلاقات السياسية في العالم العربي كله من ناحية ثانية. فعلى المستوى الأول، يعمل البيتُ الأبيضُ على التحكّم بمستقبل العراق لسنواتٍ طويلةٍ من خلال تجزئة أرضه وتدمير إمكاناته وهندسةِ المعارضة السياسية فيه، متوسلاً أدواتٍ متعددةً، تتضمن الترويعَ والتجويعَ وتهديمَ البنى التحتية، وتوليدَ وإذكاءَ الخلافات الداخلية المتمثلةِ في «المشكلة الكردية» في الشمال و«المشكلة الشيعية» في الجنوب و«المشكلة الديمقراطية» في الوسط، كما لو كانت وحدةُ الأراضي العراقية مجردَ احتمالٍ تنتهي خيوطُه جميعاً إلى اليد الأمريكية.

أما على المستوى الآخر فإنّ مستقبل الأنظمة العربية، من وجهة نظر البيت الأبيض، لن يكون إلا أثراً لموقفها الراهن من العراق. فالمؤيد للسياسة الأمريكية يهرب بجلده، والمعارض لها سيظفر بـ «بتلر خاص» به في زمن قادم. وكأنّ الإدارة الأمريكية هي المرجع الأعلى الوحيد المطلق الذي يحدد بمشيئته المتفردة مستقبلَ العرب جميعاً، شعوباً وأنظمةً ووجوداً وأرضاً.

وبالتأكيد، فإنّ لهندسة الإرادة السياسية، من وجهة نظر أمريكية، في العالم العربي وظيفة ودوراً محدديْن، يذهبان في اتجاهات متعددة كي يصبّا في النهاية في غاية واحدة. فالمطلوب نهبُ النفط والوقوفُ فوق أرضه إلى أجلٍ مجهولٍ لا يعرف ميقاتَه إلا الإدارة الأمريكية، مثلما أنّ المطلوب استمرارُ النهب والسيطرة في شروط هادئة ومستقرة تؤمّنها الأنظمةُ العربية، كي تظل المصالحُ والأرواحُ الأمريكية آمنةً وبعيدةً عن الخطر. وبهذا المعنى، فإنّ استمرار نهب النفط يعني استمرار السيطرة الأمريكية، أي استمرار الوضع العربي الخاضع والخانع من دون تحويل أو تبديل. وبالإضافة إلى الوقوف على الإرادة العربية من خلال ذبح الإرادة العراقية ثمة «تأمينُ شروط السلام»، وقوامُهُ القبول بإسرائيل من وجهة نظر إسرائيلية، والتي تعني تلازُمَ شرطيْن غيرِ قابليْن للانفصال أو الانفكاك: أولهما التعاملُ مع التوسع والسيطرة الإسرائيليين كبداهةٍ مطلقةٍ يقرّها الحس العربي قبل أن توافق عليها الشرائعُ والأديان السماوية؛ وثانيهما تجذيرُ العجز العربي وتعميقه، بما يتيح تأمين التوسع الإسرائيلي في شروط هادئة ومستقرة. وما ضرب العراق القاتل إلا آيةُ على تصوُّرٍ أمريكيٍّ إسرائيلي مشترك يرى في أية محاولة عربية للنهوض تهديداً للسلام الإقليمي والعالمي في آن. ولذلك فإنّ على العراق، وفي زمن السيطرة الصهيونية على الإدارة الأمريكية، أن يدفع إلى الأبد ثمنَ الصواريخ القليلة التي أطلقها ذاتَ مرةٍ على إسرائيل. وعلى هذا، لا يستوي تأمينُ شروط السلام إلا بتأمين شروط العجز العربي المطلق، ولا يستقيم تأمينُ وجود العراق الذي تجرّأ على إسرائيل ذاتَ مرةٍ إلا بإلغائه من الوجود. وهذا ما يجعل الموساد تساعد بتلر في أعماله التفتيشية، ويجعل بتلر يكتب تقاريرَ مزوّرةً عن العراق، ويدفع الولايات المتحدة إلى استلهام التقارير الكاذبة وهي تقصف المستشفيات العراقية وتقيم حدوداً بالصواريخ بين بغداد والبصرة.

*

تُفضي الملاحظاتُ السابقة إلى أمرين يحددان معنى العقاب والسلام في التصور الأمريكي، الذي مهما تجرَّد، يظل استطالةً نقيةً للتصور الإسرائيلي. فالعراق النازف، والمجهول المستقبل، صورةٌ للعقاب الأمريكي في «النظام الدولي الجديد» الذي إن غضب أو أُغضب لم يكتفِ بإسقاط نظامٍ أو محاصرةِ شعب، بل يذهب إلى حدود دفن النظام والشعب معاً. وبسبب هذا الغضب البربريّ الذي لا حدود له، فإنّ المطلوب هو إسقاط العراق لا إسقاط صدّام كما يقال. وحتى في حال اللجوء إلى «إسقاط صدّام»، فإنّ المطلب الرئيسي هو إسقاطُ الشعب العراقي كله، أي تدميرُ كل العناصر التي تسمح بوجود عراقٍ قويٍ قادرٍ على الوقوف، ولو بعد زمن طويل. وانطلاقاً من مفهوم «العقاب الإلهي»، يأتي معنى «السلام الإلهي» أي السلام على طريقة الأمريكية التي تهندسه وتصوغه الإدارةُ الأمريكية الوحيدةُ والمطلقة، والتي جعلتْ من المخابرات المركزية عنصراً داخلياً وعائلياً في اتفاق السلام الذي أبرمته مع القيادة الفلسطينية في غزة. يتحول هنا ريتشارد بتلر، الموزِّعُ على المخابرات المركزية والموساد وكهوفٍ أخرى، إلى مجاز شامل. فهو الذي إذا ذهب إلى العراق دمّره؛ وهو الذي إذا خرج منه حمل له المزيدَ من الدمار؛ وهو الذي لا تستوي السلطةُ الفلسطينية من دونه لأنه يُشْرف على تطبيق الاتفاقيات ويعلن عن خرقها؛ وهو الذي يَحْمل حقيبته ووجهه الكدرَ كي يذهب إلى اليمن، إذا قُتل سائح، قبل أن يرتاح كي يتابع طريقه إلى ليبيا والسودان.

*

والسؤال اللاحق الذي يطرحه الفضول، لأنّ العقل ليس بحاجة إلى طرحه، هو: لماذا هذا العجزُ العربي

الرسمي الذي يهين كلَّ منطقٍ ويُجْهز على كل محاكمة سليمة؟ لقد عوقب العراقُ سنواتٍ طويلةً عقاباً شديداً، ودُمِّرتْ أسلحتُهُ، واشتاق إلى الدواء والراحة، كما تحدَّث أكثرُ من طرف عن استبداد «لجنة التفتيش»... من دون أن يؤدّي هذا إلى تغييرٍ قليلٍ أو كثيرٍ في الموقف العربي الرسمي. إضافةً إلى ذلك جاء العقابُ في فترة يغوص فيها الرئيسُ الأمريكيّ في مياه فضائحه، وفي فترة أظهرتْ فيها إسرائيل عدمَ اكتراثها بجهود أمريكا «من أجل السلام»، وفي فترةٍ نددتْ فيها روسيا والصينُ وغيرُهما بالعدوان الأمريكي، وفي فترةٍ خرجتْ فيها الشعوب العربية غاضبةً ومنددِّةً بقتل العراق للمرة الألف... ومع ذلك، فإنّ الموقف الرسمي العربي بقي هامداً وعطناً في مكانه، موكلاً الدورَ القوميَّ العربيَّ إلى روسيا التي تخذلها مشاكلُها الداخليةُ قبل أن يخذلها الموقفُ العربيُّ الرسميُّ المخذول.

وواقع الأمر أنّ أمريكا تضرب العراق وهي تضرب الأنظمة العربية كلها، أو تضرب العراق وهي مطمئنة إلى أنها أصابتِ الأنظمةَ العربيةَ قبل أن تصيب النظامَ العراقي، لا لشيء إلا لأنها ترفع رأس العراق المقطوع أمام كل نظام لا يهجس عادةً إلا بالحفاظ على رأسه. ولذلك يأتي الصمتُ الرسميُّ مدوياً؛ فإنْ أحرجته المظاهراتُ الشعبية، تحدَّث عن قمةٍ عربية أو شبه قمة... إلا أن يوعز السفيرُ الأمريكي إلى بعض من قومه كي يبلغوا كبيرَ القوم أنّ القمة لا لزوم لها، وأنّ قمة موجهةً إلى دعم العراق إساءةٌ فادحةٌ إلى السلام وإلى هندسة البيت الأبيض للعجز العربي. ولذلك يمكن القول: إنْ كانت الولاياتُ المتحدة تَنْصب ذاتها مرجعاً وحيداً لمستقبل العراق، وهي تتحدث عن إسقاط نظام صدّام، فإنها تعلن عن ذاتها مرجعاً أعلى للإرادة العربية الرسمية وهي توقف عقدَ القمة العربية. وبسبب هذا الامتثال، الذي لا صدع فيه، تتحدث الأنظمةُ العربية عن عقدِ قمةٍ في فترة، ثم تنتقل إلى هجاء صدّام في فترةٍ لاحقة، اعتماداً على شعار تطبيق «القرارات الدولية» الذي لم يعد يؤمن به أحدٌ، بدءاً من الصين وصولاً إلى بليجكا ومدريد. فقبل أن يصرِّح مسؤولٌ صينيٌّ بأن أمريكا حوّلتْ مجلس الأمن إلى «حذاء»، كان وزيرُ خارجية بلجيكا أريك ديريك قد أعلن في السادس والعشرين من شهر كانون أول الماضي «أنّ منظمة الأمم المتحدة أصبحتْ جثةً هامدةً بعد أن فقدتْ كلَّ دورٍ لها أمام القوة الأمريكية». (**القدس** ٢٤ كانون أول ١٩٩٨). أما النظام العربي الرسمي فمشغول بتأييد «القرارات الدولية»، هذه القرارات التي تم احترامها بالطبع حينَ ضرَبت الولاياتُ المتحدة معملَ الدواء الوحيد في السودان، وحين تضرب إسرائيلُ الشعبَ اللبنانيّ منذ عشرين عاماً، وتنكِّل بالشعب الفلسطينيّ منذ نصف قرن وأكثر، وحين تجعل من هضبة الجولان السورية جزءاً لا يتجزأ من أرض اسرائيل الكبرى!

*

ربما تبدو كلمة «الانحطاط» مدخلاً للوقوف أمام المصير العراقي. فالرئيس الأمريكي يسعى إلى ستر فضائحه بتقتيل شعبٍ بأسره؛ ورئيسُ الوزراء البريطاني يشارك في القتل كي يبرهن أنّ بريطانيا العظمى لم تَمُتْ؛ والأممُ المتحدة (ودورها الدفاع عن حق الشعوب في الحياة) تتحول إلى أداةٍ تبرِّر العدوان والتدمير؛ ومليارات النفط العراقي (التي تأتي من صيغة «النفط مقابل الغذاء») تذهب تعويضاً عن الجهد الأمريكي في ضرب العراق وتذهب إلى جيوب لجنة التفتيش المزنَّرةِ بالجواسيس، والتي تتقاضى أجوراً مذهلة متوسَّطُها عشرة آلاف دولار في الشهر(١). كل شيء في زمن «النظام الأمريكي الجديد» يعلن عن الانحطاط وتبدُّدِ القيم وتفكُّكِ معايير الأخلاق الإنسانية. غير أنّ الأكثر انحطاطاً في زمن الانحطاط هو الانحطاط الذي يخترق روحَ وجسدَ بعض الأنظمة العربية، التي تتمسّك بحرفية «القرارات الدولية» أكثرَ مما يتمسك بها وزيرُ خارجية البلد الذي تقوم على أرضه «المؤسسةُ الأطلسية»، والتي تستقبل سعيدةً وفوداً إسرائيلية، وتدمّر القمةَ العربيةَ البائسةَ المقترحة (التي انعقادها وإلغاؤها سيان) بحجةِ رفضِ وجودِ طرفٍ عراقيٍ على مائدة الكلام.

ولئن كانت اللغة، في جوهرها العميق، تعبيراً عن سوء تفاهم، إذ الأرواحُ لا تتواصل مع الأرواح من دون كلمات، فإنّ اللغة المسيطرة في زمن الانحطاط تعبيرٌ عن السوء لا أكثر. فالأرواح فارقتْ مواقعها، منذ أن أصبحت الابتسامةُ ترتسم على شفتيْ مذيع عربي، يمسِّد شاربيه، وهو يتحدث عن دِقَّة الضربات الأمريكية لأرض العراق. وفي هذا الفضاء، الذي فارقته أرواحٌ وزُهقتْ فيه أرواحٌ أخرى، يستطيع كلينتون أن ينهي خطابه، بعد إعلان الحرب على العراق، بجملة: «فليبارك اللّهُ أمريكا»، ويستطيع الجنديُّ الأمريكي أن يجعل من صاروخٍ وزنُهُ ألف كيلوغرام هديةً لشعب العراق بمناسبة شهر رمضان، ويستطيع المسؤول العربي الرسمي أن يصل إلى قمة الانهيار فيما هو يتحدث عن قمةٍ عربية بأدواتٍ منحدرةٍ يسكنها العطن!

فلسطين (دمشق)

١ - ذكرت التقارير أن بتلر يتقاضى مئة وستين ألف دولار معاشاً شهرياً، وذلك في بلدٍ متوسّطُ دَخْلهُ... ثلاثة دولارات فقط!